أضواء على كتاب
"الحديث النبوي الشريف وعلم النفس"

للدكتور محمد عثمان نجاتي

الإنسان: خلقه الله سبحانه وتعالى ليكون خليفة في الأرض ويقوم بتعميرها ونشر العدل والأمن والسلام فيها وفي ذلك يقول الله تعالى: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } "البقرة 30"، ولذلك فقد كان أساس التربية في الإسلام دوام الصلة بالله سبحانه وتعالى.

والمسلم القريب إلى الله ليس هو صاحب المال ولا صاحب الجاه، بل هو الذي يسير على المنهج الذي رسمه اللعه سبحانه وتعالي: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} "الحجرات 13".

والإنسان مزيج من الماديات والمعنويات واستخدام الإنسان لطاقاته كلها يحدث توازناً بين مادياته ومعنوياته، ذلك لأن طغيان ناحية على ناحية أخرى يحدث أنواعاً من الشذوذ على النحو الذي نراه في

المجتمعات الحديثة، فالتربية المتوازنة من الخصائص الواضحة في منهج التربية الإسلامية.

والنبي الكريم هو المعلم الأول الذي ربى هذه الأمة التربية الكاملة المتكاملة، وسار المسلمون على هذا المنهج حتى أدوا رسالتهم كاملة طوال فترات طويلة ثم غفل المسلمون عن هذا المنهج، وفي عصرنا الحاضر جاء الأستاذ الدكتور محمد عثمان نجاتي ليبين لنا أسلوب تربية النبي لأصحابه من خلال كتابه: "الحديث النبوي الشريف وعلم النفس".

وبذلك يمكننا أن ننظر إلى التربية النبوية نظرة جديدة تجعلنا نقوم بالتربية على هذا المنهج حتى نحقق لأمتنا ما هي في حاجة إليه من التربة السليمة التي تجعل المجتمع الإسلامي قادراً على أداء دوره في الحياة، كما قام به السابقون من أبناء الأمة الإسلامية.

دوافع السلوك في الحديث:

للإنسان حاجات كثيرة منها ما هو أساسي مثل الطعام والشراب ومنها ما هو ضروري لتحقيق أمنه النفسي، منها حاجات فسيولوجية مثل الجوع والعطش، ومنها ما هو روحي ونفسي بعضها يتعلق بأمنه النفسي وسعادته، فالإنسان يشعر بالطمأنينة بمعرفته بخالقه. دوافع حفظ الذات: وتكون في الطعام والشراب والسكن والزواج وفي ذلك يقول النبي الكريم "ليس لابن آدم حق في سوى هذا الخصال، بيت يسكنه وثوب يواري به عورته وجلف الخبز والماء" رواه الترمذي وأحمد، والجلف: الخبز وحده لا

إدام معه، ويقول: "من كان لنا عاملاً فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادماً، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكناً" رواه أبو داود.

الجنس والأمومة:

يمثلان دافعاً بقاء النوع فالذكر والأنثي كل منهما ينجذب نحو الآخر، فتتكون الأسرة ويحدث التناسل: { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ } "النحل 72" والعلاقة بينهما علاقة مودة ورحمة والصلة بينهما ترتفع إلى مستوى العبادة ويظهر ذلك في قول النبي الكريم :"لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً" رواه أبو داود.

ونهى عن السخرية والتحقير والغيبة والغش وأكل أموال الناس بالباطل أو إراقة الدماء، فقال: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه" رواه الشيخان، وقال: "ليس المسلم بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء" رواه الترمذي، وقال: "لا يدخل الجنة نمام" رواه مسلم. يقول النبي في ذلك: "ليس الغني عن كثرة العرض ولكن الغني غني النفس" رواه الشيخان، ويقول: "تعس عبد الدرهم والدينار والقطيفة والخميصة، إن أعطي منها رضي وإن لم يعط سخط"، رواه البخاري، وحث على الإنفاق في سبيل الله فقال: "من

أنفق نفقة في سبيل الله كتبت له بسبعمائة ضعف" رواه الترمذي والنسائي، ويقول "ما نقص مال من صدقة" رواه مسلم.

الانفعالات في الحديث النبوي الشريف:

الانفعالات الهامة عند الإنسان هي انفعالات الخوف والغضب ولاكره والحزن والحياء والحسد والغيرة والكبر والعجب والزهو.

الحب: الحب هو العامل الأساسي في تكوين الأسرة وفي تربية الطفل وفي ترابط أفراد الأسرة وتماسكهم وتعاونهم وفي تكوين العلاقات الاجتماعية.

وحب الله سبحانه وتعالى يقوم بدور هام في حياة الإنسان وكذلك حب الرسول الكريم، وفي الحديث "من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله فقد استكمل الإيمان"، رواه أبو داود والترمذي. "أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله" رواه أبو داود، "وفي بضع أحدكم صدقة" رواه مسلم، وفي قوله "من أراد أن يلقي الله طاهراً مطخراً فليتزوج الحرائر" رواه ابن ماجة.

الدوافع النفسية والروحية:

وتظهر في دافع التدين وفي ذلك يقول الله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} "الروم 30"، ويقول النبي الكريم "ما من مولود إلا ويولد على الفطرة" رواه الشيخان.

دوافع التنافس:

ودافع التنافس من الدوافع النفسية، وقد حث القرآن الكريم على التنافس في تقوى الله تعالى، فقال { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} "المطففين 22" كما أن النبي الكريم وضح للمسلمين خطر التنافس في غير الخير، فقال "فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها فتهلكوا" البخاري، وكان النبي الكريم يشجع على التسابق بالخيل وغيره.

دافع التملك:

وقد بين الرسول الكريم دافع التملك عند الإنسان وحذر منه أن يسير في غير الطريق السلم، فقال "لو كان لابن آدم واديان من ذهب لأحب أن يكون له ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب" رواه الشيخان. ويلاحظ أن هناك علاقة بين الدافع والانفعال وقد قال ذلك رسول الله: "للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه" رواه النسائي.

الصراع بين الدوافع:

إذا وقع الإنسان تحت تأثير دافعين متساويين في القوة ومتضادين في الاتجاه حدث الصراع مثل موقف المنافقين الذي وضحه القرآن الكريم في قوله { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاةِ

قَامُواْ كُسَالَى يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً} "النساء 142 : 143".

وقول النبي الكريم: "مثل المنافق كمثل الشاه العاثرة بين العتمين تسير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة" رواه مسلم، وكثيراً ما يقع الصراع النفسي لدى الإنسان بين دوافعه المتعلقة بإشباع حاجاته البدنية وأهوائه وشهواته الجنسية وبين دوافعه الدينية وأشواقه الروحية من جانب آخر.. يقول النبي الكريم: "مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش، هذه الدواب التي في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها قال: "فذلكم مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبوني وتقحمون فيها" رواه مسلم، ويوجه النبي الكريم الناس توجيهاً طيباً فيقول "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني" رواه الشيخان، ويقول "ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء" رواه الشيخان، والخلاص من الصراع يكون بتقوية أحد الدافعين، يقول الله تعالى { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ} "طه 124".

ولابد من التوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي في الإنسان الذي، يقول القرآن الكريم فيه: { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ

فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} "القصص 77" ويقول النبي الكريم": حبب إلى من الدنيا ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة" النسائي.

السيطرة على الدوافع:

والسيطرة على الدوافع تكون عن طريق الإشباع الحلال والذي وضحه النبي الكريم فقال "يا أيها الناس! إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً، وقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا كُلُوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوْا للهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُوْنَ} "البقرة 172" ثم ذكر "الرجل يطيل الشعر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأني يستجاب له" رواه مسلم والترمذي.

التنظيم:

يكون عن طريق عدم الإسراف في الإشباع في ذلك، يقول النبي الكريم "كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة" رواه البخاري، ويقول "طعام الاثنين كافي الثالثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة" رواه الشيخان ومالك والترمذي.

والسيطرة على الدافع الجنسي تكون عن طريق الزواج المبكر والألعاب الرياضية والأعمال الفنية والأدبية والأنشطة الاجتماعية المختلفة، إلى جانب عدم تعرض الشباب للإثارة، والصوم، يقول النبي الكريم "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء" رواه الشيخان والترمذي، ويقول في الاختيار "إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير" رواه الترمذي وقد بين النبي الكريم أهمية السيطرة على الدوافع في المجتمع الإسلامية حتى يعيش في أمن وسلام ومودة، فقال "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده ومن ولده والناس أجمعين" رواه البخاري. وقال "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار" رواه الشيخان والترمذي والنسائي.

حب الناس:

في الإسلام المؤمنون إخوة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وفي الحديث الشريف ما يرسم الخطة التي تجعل المسلم يسير في هذا الاتجاه، حتى يمكنه أن يعيش سعيداً في مجتمع سعيد، يقول "والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتي تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتي تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم" رواه الترمذي، "المؤمن

ألف مألوف ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف" رواه أحمد، "لا يؤمن أحدكم حتى يحيب لأخيه ما يحب لنفسه" رواه الشيخان، "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر" رواه الشيخان.

حب الأبناء:

وحب الأبناء عنصر أساسي في التربية النبوية، وجاء أعرابي إلى النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – وقال له "أتقبلون صبيانكم؟ والله ما نقبلهم، فقال – صلى الله عليه وسلم – أو أملك إذا نزع الله من قلبك الرحمة" صلى الله عليه وسلم، رواه الشيخان، وقد قبل النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم الحسين بن على وعنده الأقرع ابن حابس التميمي فقال: "إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً فنظر إليه النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم: " ثم قال: من لا يرحم لا يرحم" رواه الشيخان.

الحب الجنسي:

الحب الجنسي أساس في استمرار الحياة ولكن المطلوب أن يكون في إطار العلاقات الزوجية ولذلك قال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء" رواه الشيخان.

الخوف:

والمطلوب أن يكون المسيطر على الإنسان هو الخوف من الله تعالى وفي ذلك يقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم "لا يلج النار رجل بكي من خشية الله حتي يعود اللبن في الضرع" رواه الترمذي.

حب المخلوقات:

الكون خلقه الله تعالى للإنسان والمطلوب أن يكون الكون كله محبوباً من الإنسان فإن ذلك يعينه على أداء رسالته يقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أوإنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة" رواه الشيخان والترمذي. ويقول "في كل ذات كبد رطبة أجر" رواه البخاري ومسلم، كما يعطينا أمثلة للوجل الذي اشتد عليه العطش ورأي كلباً عطش مثله فسقي الكلب بوضع الماء في نعله فغفر الله له ذنوبه، والمرأة التي حبست هرة في الدار فماتت فلا هيأطعمتها وسقتها ولا هي تركتها تأكل من حشائش الأرض فعذبها الله سبحانه وتعالي.

الأعراض البدنية للغضب:

من مظاهر الأغراض البدنية للغضب سرعة دقات القلب وانقباض الأوعية الدموية في الأحشاء واتساعها على سطح البدن والأطراف، مما يؤدي إلى كثرة تدفق الدم في الأوعية الدموية على سطح البدن وبخاصة الأطراف والوجه فيحمر وجه الإنسان أثناء الغضب بشكل واضح، فيقول النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تُوقَدُ فِي قَلْبِ ابْنِ

آدَمَ، أَلَمْ تَـرَوْا إِلَى انْتِفَـاخِ أَوْدَاجِـهِ وَإِلَى احْمِـرَارِ عَيْنَيْـهِ، فَـإِذَا وَجَـدَ أَحَـدُكُمْ ذَلِـكَ، فَـإِنْ كَـانَ قَائِمًـا فَلْيَقْعُـدْ، وَإِنْ كَـانَ قَاعِـدًا فَلْيَتَّـكِ" رواه الترمـذي، والغضب قد يعطل العقل عن التفكير السليم، وكما قالوا: حبك الشيء يعمي ويصم.. وقد غضبت السيدة عائشة مرة بسبب غيرتها على النبي الكريم، فقال لها "لقد جاء شيطانك" رواه مسلم والنسائي.

الحسد:

الحسد حالة انفعالية شائعة بين الناس وفي القرآن الكريم: { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا} "النساء 54"، وفي الحديث عن ابن عباس: "إن لنعم الله أعداء"، فقيل من هم؟ فقال: "الذين يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله" رواه الطبراني، وفي الحديث "الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب" رواه أبو داود وابن ماجة، وفي الحديث أيضاً "لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها" رواه الشيخان والترمذي.

الغيرة:

الغيرة انفعال مكدر ينشأ عادة إذا شعر الإنسان بأن هناك شخصاً ينافسه في الحصول على حب شخص معين عزيز عليه، وفي الحديث الشريف الذي رواه البخاري والترمذي "إن الله يغار والمؤمن يغار،

وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله، وفي الحديث الشريف الذي رواه أبو داود "من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله، فأما التي يحبها الله عز وجل فالغيرة في الريبة، وأما التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة".

الحياء:

الحياء حالة انفعالية يشعر فيها الإنسان بالخوف، والخجل من فعل ما هو مذموم ومستقبح أو غير مقبول دينياً، وفي الحديث الشريف "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت" رواه البخاري وأحمد، وفي الحديث "الحياء لا يأتي إلا بخير" رواه مسلم، وعن عبد الله بن مسعود أن الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – قال "استحيوا من الله حق الحياء قلنا يا رسول الله: "إنا لنستحيي" قال: "ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وأن تذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء" رواه الترمذي وأحمد والحاكم.

السيطرة على الانفعالات:

الانفعالات تؤدي وظيفة هامة في الحياة، فهي تساعد على التوافق من أجل حفظ ألذات وبقاء النوع.

وانفعال الخوف: يساعد على الابتعاد عن مواقف الخطر وعلى توقع الخطر قبل وقوعه، فيتخذ الاحتياطات اللازمة للوقاية منه، والغضب

يساعد على الدافع عن الذات ضد ما يهددها بالأذي والضرر والهلاك، ويساعد على التغلب على الصعوبات، والانفعال الشديد تصاحبه تغيرات بدنية كثيرة قد تؤدي إلى بعض الأمراض البدنية.

ولذلك فإن النبي الكريم أوصى بعدم الانفعال: "فقد جاء رجل إلى النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – وقال له: "أوصني"، قال: "لا تغضب"، فرددها مراراً، فقال: "لا تغضب" رواه البخاري، وسأل النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – أصحابه قائلاً: "ما تعدون الصرعة بينكم"؟ قالوا: "الذي لا تصرعه الرجال"، قال: "لا، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب" رواه مسلم وأبو داود، وقد نصح النبي الغاضب بالجلوس إذا كان قائماً والاضطجاع إذا كان جالساً، لأن ذلك يؤدي إلى استرخاء البدن مما يساعد على مقاومة التوتر فيذهب الغضب تدريجياً، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، ويقول النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم: "لا تباغضوا ولا تحاسدوا لا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً" رواه الشيخان.

والحزن:

يحدث في الإنسان شعوراً بالكدر والضيق ولذلك يقول النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن" رواه الستة إلا مسلم.

التوازن في الشخصية:

وهكذا يبين لنا النبي – صلى الله عليه وسلم – أن المسلم هو صاحب وظيفة عليه أن يؤديها بنجاح، وذلك يستلزم اتباع المنهج النبوي في السلوك والتوازن في الشخصية حتى يكون قادراً على أداء وظيفته، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فالله تعالى رحيم بعباده وهو يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، فلكل من البدن والروح حاجات تتطلب الإشباع، ولابد منا لموازنة بين الجانبين والإسلام يقر ترك بعض الفرائض والتكاليف إذا كان في أدائها ضرر بالبدن، ويعتبر العمل عبادة ما دام يقصد به وجه الله تعالى، ويقول النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم: "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم" رواه الشيخان.

وهكذا يبين لنا علم النفس الحديث السلوك النبوي في إطار أداء المسلم لرسالته في يسر وفهم واتجاه إلى الخير، وبذلك ينجح في أداء رسالته، فيرضى عن نفسه، ويرضي الله تعالى عنه، ويعيش آمنا سعيدا في الدنيا والآخرة على السواء.